

من تصوير القرآن

لإعراض الكفّار عن نداء الحقّ

د. وليد مقبل الديب
أكاديمي مصري

يقول الله –تعالى-: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (النمل: ٧٩ – ٨١).

هذه الآيات تُثير مجموعة من التساؤلات، وقد اجتهد مفسرونا في الإجابة عنها، وهذه التساؤلات هي:

السؤال الأول: إذا كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– على الحق المبين، فلماذا أعرض عنه أهل الشرك؟

والجواب: لأنهم بالنسبة لدعوة الحق موتى، وصُمٌّ، وعُمي؛ فقوله – تعالى- ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ بمنزلة:

١– جواب للسؤال عن عدم إيمانهم مع كون الرسول –صلى الله عليه وسلم– على الحق المبين.

٢– تسلية للرسول –صلى الله عليه وسلم–، وعذر له عن عدم إيمانهم، فهؤلاء الكفار لا يستحقون أن يؤسف عليهم؛ لأنهم اختاروا ذلك لأنفسهم، ولأنه لم يترك من تحذيرهم ما لو ألقاه إليهم لأقلعوا عما هم فيه، فلم يبقَ ما يُوجب أسفه عليهم، فكأن الله –تعالى– ينهى رسوله –صلى الله عليه وسلم– من أن يحزن عليهم إن لم يؤمنوا، كقوله – تعالى - : ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (الشعراء: ٣).

السؤال الثاني: لمَ شبَّههم بالموتى؟ ولمَ شبَّههم بالصُمِّ؟

والجواب: شبَّههم بالموتى على طريقة الاستعارة في انتفاء فهمهم معاني القرآن.

فمن آثار القرآن: أنه يشتمل على معانٍ مقبولة لدى أهل العقول السليمة، وهي المعاني التي يدركها ويُسلِّم لها من تَبلُغ إليه، ولو بطريق الترجمة؛ بحيث يستوي في إدراكها العربي والعجمي، وهذا أثر عقلي، والموتى لا يبلغهم هذا الأثر.

وشبَّههم بالصم؛ لانتفاء أثر بلاغة ألفاظ القرآن عن نفوسهم.

ومن آثار القرآن: دلالة نظمه وبلاغته على أنه خارج عن مقدرة البلغاء العرب، وهذا أثر لفظي، وهو دليل الإعجاز، وهذا الأثر خاص بالعرب في المقام الأول، ويشمل غيرهم من الأعاجم إذا كانوا من أهل النظر والتأمل، فإذا تدبروا في عجز البلغاء من أهل اللسان الذي جاء به القرآن عن معارضته تيقنوا أنه فوق مقدرتهم، فالمشركون شُبِّهوا بالموتى بالنظر إلى الأثر الأول، وشُبِّهوا بالصُّمِّ بالنظر إلى الأثر الثاني.

السؤال الثالث: لماذا كرَّر (تُسْمِعُ) في قوله –تعالى– : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾، ولم يقل مثلا: (إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ الصُّمَّ)؟

والجواب: لتأكيد عدم استجابتهم لدعوة الحق.

السؤال الرابع: من شأن الأصم أنه لا يسمع، فلمَ قيَّده بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾؟

والجواب: لأن اجتماع الصمم والإدبار آكَدُ في عدم السماع؛ فالأصم إذا كان مواجها للمتكلم قد يسمع بعض الكلام بالصراخ مثلا، أو يستفيد من الإشارات باليدين والوجه، فجعله أبعد ما يكون عن أي وسيلة قد تسمعه.

السؤال الخامس: التولِّي هو الإدبار، فلِمَ عبَّـرت الآية بالتولِّي والإدبار، ولمْ تُعبرِّ بأحدهما؟

والجواب: (مدبرين) حالٌ مؤكِّدة لعاملها، جاءت لتأكيد إعراضهم عن الحق، وفرارهم منه.

السؤال السادس: لماذا تكرَّر تشبيه إعراضهم بالعُمي في قوله –تعالى– ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾ بعد أن شبَّههم بالموتى وبالصُّمِّ؟

والجواب: تكرَّر تشبيه المشركين في إعراضهم عن الحق بأن شُبِّهوا في ذلك بالعُمي بعد أن شُبِّهوا بالموتى وبالصُّمِّ على طريقة الاستعارة؛ إطنابا في تشنيع حالهم، بأنهم لن يستجيبوا للدعوة إلى الحق لشناعة ما هم عليه من ضلال يشبه الموت والصمم والعمى.

ومن آثار القرآن: أنه مرشد إلى طريق الهدى، فشُبِّهوا بالعمي في انتفاء التمييز بين طريق الهدى وطريق الضلال من حيث إنهم لم يتبعوا هدى الإسلام.

السؤال السابع: لماذا عدل في جملة ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾ عن نفي الفعل كما في الجملتين الأوليين ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ إلى نفي الجملة الاسمية؟

أي لماذا لم يقل: (إنك لا تهدي العمي عن ضلالتهم) كما قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾؟

والجواب: نفي الجملة الاسمية يدل على ثبوت النفي ودوامه، وقد أكد ذلك الثبوت بالباء المزيدة لتأكيد النفي في (بهادي)؛ وهذا لأن الجملة الأخيرة تنفي اهتداءهم الذي هو مطمح الرسول –صلى الله عليه وسلم– ؛ ليؤكد له الله –تعالى– عدم جدوى حسرته على عدم إيمانهم، كما قال –عزَّ وجلَّ–: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾، وليثبت له مضمون قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾.

وقد أجاد الشاعر حين قال:

لَقَدْ أَسمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي
وَلَوْ نَارٌ نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ ... وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ

رحم الله ابن كثير وابن عاشور وجميع مفسري القرآن الكريم!